لجنة النشر للجامعيين

عمر في بيت المقدس

تأليف

سيد قطب

عبد الحميد جوده السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

« كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وعُيونٍ ، وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ » .

« قرآن كريم »
(سورة الدخان)

١

كانت جيوشُ المسلمينَ تحاربُ الرّومَ فى الشّام ، فكان أبو عبيدةَ وخالدُ بنُ الوليدِ فى شُغلٍ بِفتحِ حِمْصَ وحلبَ وأنطاكية . وتقدَّم عَمرُو بنُ العاص ، وحاصر بيتَ المقدِس ، وكان قائدُ جيوش الرّومِ أرْطَبون ، وكان داهيةً من دُهاتِهِمْ ، فوجد عمروٌ فى قتالِه تعباً شديدا ، فكتب إلى عمرَ يصف له ما يُلاقيه من شِدَّة ، ووصف له دَهاءَ أرطبون ، فقال عمرُ بنُ الخطّاب لمن حولَه :

— قد رميْنا أرْطَبونَ الرّوم بأرْطَبونِ العرب ، فانظروا عمَّ ينفرجُ .

كان عمرٌو داهيةً من دُهاةِ العرب ، وكان أرْطَبونُ

داهيةً من دُهاةِ الرّوم ، فقال عمرُ إنَّ الحربَ تدور الآن بين داهيةِ العربِ وداهيَةِ الرّوم ، فلننظرْ من منهما ينتصر !

كان عمرُو بنُ العاصِ يُرسل الرُّسلَ للتّفاوضِ فى الصُّلح ، وأمرَهُمْ أن يُوافوه بمداخِل العدُوّ ، ومعرفةِ كلِّ شىء عنه ، حتى يستفيدَ بما يجمعُ من معلوماتٍ فى حربِه ، ولكنَّ الرُّسُلَ لم يَشْفُوا غليله ، فرأى أنْ يحتال ، وأن يذهبَ بنفسِه لمقابلة أَرْطبون ، دون أن يكشِفَ شخصيَّته .

وتنكّرَ عمرُو ، وسار إلى أرْطَبون ، ودخل عليه ، كأنَّه رسول ، وجعلَ عمرُو وأرْطبونُ يتحدّثان ، فداخلتْ أرْطبونَ الرّيبةُ فى شخص محدِّثِه ، وجَدَه واسعَ الأُفق ، غزيرَ المعرفة ، فقال فى نفسِه :

— والله إنَّ هذا لعمْرُو ، أو أنَّه الذى يأخذُ عمرًو برأيه ، وما كنتُ لأصيبَ القومَ بأمرٍ أعظمَ عليهم من قتله !

ثم دعا أرطبونُ جنديًّا من رجالِ حرسِه ، فأسرَّ إليه إذا مرَّ العربىُّ بمكانِ كذا ، أن يقتُلَه . وفطن عمرٌو إلى أنَّ فى الأمرِ خديعة ، وأنَّ أرْطبونَ يُدَبِّرُ قتلَه ، فقال لأرطَبون:

— قد سمِعتَ منّى وسمِعتُ منك ، فأمَّا ما قُلته فقد وقع منى موقِعا ، وأنا واحدٌ من عشرة ، بعثنا عُمرُ بنُ الخطّاب مع هذا الوالى لنُكاشِفه ، ويُشهدَنا أمورَه ، فأرْجعُ فآتيك بهِم الآن ، فإنْ رَأَوْا فى الذى عرضتَ مثلَ الذى أرَى ، فقد رآهُ أهلُ العسْكرِ والأمير .

وطمِع أرْطبونُ فى أنْ يقتُلَ العشرةَ الذين يُشيرونَ على الأمير ، فأرسل إلى الحارسِ الذى أسرَّ إليه بقتلِ العربىِّ أن يتركَه ، وخرج عمْرٌو مُسرعا بعد أنْ خدَع أرْطَبونَ

الرّوم ، ونجا بنفسِه من القتل ، وعرَف أرطبونُ بعدَ ذلكَ ، أن الذى كانَ يحادثهُ هو عَمرو بن العاصِ نفسُه ، وأنه خدَعَه لمَّا قال له : إنَّه واحد من عشرة يستشيرُهم الأمير ، وإنَّه راجعٌ ليأتِيَه بهم ، فقال أرْطبونُ فى حَسْرة :

— خدَعنى الرَّجُل ، هذا أدْهَى الخلق .

وبلغ عُمَر بنَ الخطّاب ما حدث ، فقال :

— غلبَهُ عمرٌو ، للهِ عمرو ! :

٢

كان حِصارُ المسلمينَ لبيتِ المقدسِ فى فصلِ الشِّتاء والبرد ، فأقاموا عليها أربعةَ أشهرٍ فى أشدِّ قتال ، مع الصبرِ على المطرِ والثَّلج ، ورأى عَمرٌو أن يطلُبَ من عُمرَ ابنِ الخطّابِ مَدَدا ، فكتبَ إليه ، فلما جاء كتابُ عَمْرٍو إلى أميرِ المؤمنين ، قرأه على النّاس ، وسألهم ، أيخرُج

بنفسِه ، أم يُرسلُ الجنود ، فقال له عثمانُ بنُ عفّان :

— لا تركبْ إليهم ، ليكونَ أحقرَ لهم .

وقال له علىُّ بنُ أبى طالب :

— سرْ إليهم ، فقد أصابَ المسلمينَ جَهدٌ عظيم ، من البردِ والقِتال وطولِ المقام ، فإذا أنت قَدِمت عليهم ، كان لك وللمسلمين الأَمْنُ والعافيةُ والصلاحُ والفتح ، ولستُ آمَنُ أن ييأسُوا منك ومن الصُّلح ، ويُمسكوا حصنَهم ، ويأتِيهم المددُ من بلادهم وطَاغيتهم ، لا سيَّما وبيتُ المقدسِ مُعظَّمٌ عندَهم وإليه يَحُجّون .

مال عمرُ إلى رأىِ علىِّ بنِ أبى طالب ، فقد رأى فى سقوطِ بيت المقدسِ القضاءَ على دَوْلةِ الرّومِ فى الشّام ، فاستخلفَ علىَّ بن أبى طالبٍ على المدينة ، وكتب إلى قوّاده أن يقابلوهُ فى الجابيَة ، القريبةِ مِن بيتِ المقدس .

وركِب عُمر بعيرًا له ، وسار ومعه جماعةٌ من الصَّحابة ليس معه إلّا قِربةٌ مملوءةٌ ماء ، وجَفنةٌ للزّاد ، وكساءٌ من الصّوف ، يجلس عليه إذا ركِب ، ويفرِشُه تحتَه إذا نام ، وعليه مُرَقّعةٌ من صوف ، فيها أربعَ عشرةَ رُقعةً بعضُها من أديم !

ودخل عمرُ الشّام ، تلوح صلعَتُه للشمس ، ليس عليه قَلنسُوةٌ ولا عِمامة ، وراح يتلفّت حولَه ، فرأى قصورا وبساتين ، فتلا قولَ الله تعالى « كم تركوا من جنّاتٍ وعُيون ، وزُروعٍ ومَقامٍ كريم ، ونَعمةٍ كانوا فيها فاكهين ، كذلك وَأورثناها قومًا آخرين » .

وأقبل القُوّادُ يستقبلون أميرَ المؤمنينَ وعليهم الحرير ، فغضِب عُمر ، وسار إليهم ليحصِبَهم ، فما كان الحريرُ لُبْسَ القُوّادِ المُتقشِّفين ، فاعتذروا إليه بأن عليهمُ السِّلاح ،

وأنَّهم يحتاجون إليه فى حُروبِهم ، فسكت عنهم ، ثم راح يصافِحُهم ويعانِقهم .

وأقبل المسلمون يُسَلِّمون على عُمر ، ثُمَّ صَلَّى عُمَرُ بالمسلمينَ صلاةَ الفجر ، ثم خطبَهم ، فقال :

— أيُّها النّاس ، أصلِحوا سَرائرَكم تصلُحْ علانيّتكُم ، واعمَلوا لآخرتِكم تُكفَوْا أمرَ دنياكُم .

وجلس مع القوّاد يُحَدِّثونه بما لَقُوا من الرّوم ، إلى أن حضرتْ صلاةُ الظُّهر ، فطلب الناسُ من عمَر أن يطلبَ من بلالٍ مؤذِّنِ الرَّسولِ أن يؤذِّن ، فما أذَّنَ بلالٌ بعد موتِ الرَّسول . طلب عمرُ منه أن يؤذِّن ، فقام بلالٌ وأذَّن بصوتِه العذبِ الحَنون ، الذى طالما تردَّدَ فى جَنباتِ المدينةِ فى عهد مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ، فَهَاج صوتُ بلالٍ الذكرياتِ ، فلما قال : « الله أكبر » ،

خشعتْ قلوبُهُمْ ، و اقشعرّت أبدانُهم ، فلما قال : أشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاّ الله ، وأشهدُ أنّ مُحَمّدًا رسولُ الله » ، بكى الناس بكاءً شديدا ، لذكْرِ اللهِ وذِكْرِ رسوله ، وكاد بلالٌ يقطعُ الأَذان ؛ ولـكنه استمرَّ وقد شرِقَ بدموعِه ، وبكى عمرُ حتى بلَّ لِحيَته ، وبكى الذين لم يَروْا مُحَمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم ، لبـكاءِ إخوانِهم .

٣

كان عُمر بالجابِية ، فإذا بفُرسانٍ مُقْبلينَ فى أيديهم السُّيوف ، فأسرع المُسلمونَ إلى سلاحِهم ، فقال عمر :

— إن هؤلاءِ قومٌ يستأمِنون .

واقتربَ فُرسان الرّوم ، فإذا بهم رسلُ أُسْقُفِ بيتِ المقْدِس ، قد جاءوا يُصالحون أميرَ المؤمنين .

عرف أرْطَبُونُ مَقدَمَ عُمَر ، وعرف ما نزل بالرُّومِ على

أيدى العرب ، فانسحب مُستخفياً إلى مِصر ، وترك بِطريقَ بيتِ المَقْدِس يُفاوضُ المسلمينَ فى تسليمِ المدينة .

طلب البِطْريقُ أن يُسلِّم بيتَ المقدِس لعمَر أمير المؤمنين ، فأمر عمرُ بالرّكوب ، فلما همَّ بالركوبِ على بعيرِه وعليه مُرَقَّعَةُ الصُّوف ، قال المسلمون :

— يا أميرَ المؤمنين ، لو ركِبتَ غير بعيرك جوادا ، ولبست ثيابا بِيضًا ، لكان ذلك أعظم لَهيبتك فى قلوب أعدائك .

فقال عمر :

— نحن قومٌ أعزَّنا الله بالإسلام ، فلا نطلبُ بغير الله بَديلا .

واستمرَّ المسلمونَ يسألونه ويَتلطَّفون به ، إلى أن قبِل أن يخلع مُرَقَّعتَه ، ولبس ثيابا بِيضًا وركب جواداً من

جيادِ الرُّوم ، وطرح على كتفيه مِنديلا من الكتّان ، دفعه إليه أبو عُبيدَة ، وسار الجوادُ يتبختَر فى مِشيته ، فلما رأى عمرُ ذلك ، نزل مُسرعا وقال :

— أقيلوا عَثْرتى ، أقالَ اللهُ عثرتكم يومَ القِيامة ، فقد كادَ أميرُكم يهلِك بما دخل قلبى من العُجبِ والكِبر ! وخلع الثَّوبَ الأبيض ، ولبس مُرقَّعَتَه ، وركِب بعيرَه .

وسار عُمر حتى بلغ بيتَ المقدِس ، ففُتِحَتْ له أبوابُها ، وأسرع البِطريقُ وأهلُ بيتِ المَقْدسِ يُرحّبونَ بمَقدَمِه ، فقد أمَّنهم على حياتِهم وعلى أموالِهم ، وترك لهم كنائسَهم وصُلبانَهم ، وصالحهم على ألّا يُكرهوا على دينِهم ، على أن يُعطوا الجِزية ، وكان سرورُ أهلِ بيتِ المقدسِ بهذا الصُّلحِ عظيما ، فأسرعوا يُحيّونَ عُمر ، فلما

رآهم عمرُ فى تلك الحالة ، تواضع لله سبحانه وتعالى ، وخرَّ ساجدا على قَتَبِ بعيرِه .

٤

ودخل عمرُ المسجدَ الأقْصَى ، أوَّلَ قبلةٍ للمُسلمين ، والمكانَ الذى أَسْرَى إليه الرَّسول « سبحانَ الذى أسرَى بعبدِه ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى ! » ، وكان اللَّيلُ قد أرخَى ستائرَه ، فذهب إلى محرابِ داود ، وظلَّ يُصلِّى لله ربِّ العالمين ، ولما أصبحَ الصباحُ راح يُشاهدُ آثارَ الأنبياء ، فرأى محرابَ داود ، وصخرةَ يعقوب ، وأطلالَ هيكلِ سُلَيمان ، فشكر الله أنْ جعل فتح هذه البلدة المقدّسةِ على يديه .

والتفت عمرُ إلى من حولَه . وقال :

— ارقبُوا لى كَعْبا .

كان كعبُ الأحبارِ يهودياً ثُمّ أسلَم ، وكان يعرِف العاداتِ اليهودية ، فلما جاء كعبٌ قال له عُمر :

— أينَ ترى أن نَجعلَ المُصلَّى ؟

فقال كعب :

— إلى الصّخْرة .

فلم يعجبْ هذا الرأيُ عمر ، فقد كان اليهودُ يقدِّسونَ صخرةَ يعقوب ، فقال :

— ضاهيتَ اليهوديَّة يا كعب . . بل نجعَلُ قبلتَه صدرَه ، كما جعل رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قبلةَ مساجدِنا صُدورَها ، فإنا لم نُؤمَر بالصخرة ، ولكنَّا أُمِرنا بالكعبة .

فجعل قبلةَ المسجدِ الأقصى صدرَه ، ثم قام من مُصلاّه إلى كُنَاسة كانت الرّومُ قد دفنتْ بها بيتَ المقدسِ فى زمانِ بنى إسرائيل ، فراح يُزيلها ، وقال لأصحابه :

— اصنعُوا كما أصنع .

ولم يزلْ عمرُ والمسلمونَ يزيلون الكُناسة ، حتى زال كلُّ ما على الصخرة ، فقد كانت الموضعَ الذى أسْرِى برسول الله إليه .

وتمَّ لعُمرَ فتحُ بيتِ المقدِس ، فعاد إلى المدينة ، فخفَّ الناسُ إليه يستقبلونَه فرحينَ مستبشرين .

٥

انتصر المسلمونَ فى العراقِ وفى الشّام ، فتدفَّق المالُ على المدينةِ تدفُّقًا عظيما ، ولم يكنْ هناك أماكنُ يُحتفظ بها ، فكان يوضع فى المسجِد ، ويُقام عليه حرسٌ حتى يُقسَّمَ بين المسلمين .

كان أبو بكرٍ يَقْسِمُ الأموالَ التى تصل إلى بيتِ المال بالتَّساوى على المسلمينَ كافَّة ، ولكنْ لما تولَّى عُمر الأمر ،

رأى أنَّ تسويةَ المسلمينَ جميعا بعضِهم ببعض ، ظلمٌ بالسّابقينَ في الإسلام ، فكيف يُسَوَّى بين مَن أسلمَ مع رسولِ الله وحارب معه ، بمن أسلمَ بعد ذلك ، وكان يحارب رسولَ الله ؟ فقام يخطب النّاس ، فقال :

— والله ما أحدٌ أحقَّ بهذا المالِ من أحد ، وما أنا بأحقَّ به من أحد ، واللهِ ما من المسلمينَ من أحدٍ إلاّ وله في المالِ نصيب ، إلاّ عبدا مملوكا ، ولكننا على منازِلنا من كتابِ اللهِ تعالى ، وقَسْمِنا من رسولِ الله ، فالرَّجلُ وبلاؤه في الإسلام ، والرَّجُل وقِدَمُه في الإسلام ، والرَّجل وغَناؤه في الإسلام ، والرَّجل وصاحبُه ، واللهِ لئن بقيتُ لهم ليأتينَّ الراعي بجبلِ صنْعاءَ حظُّه من هذا المـــال وهو يرعَى مكانَه .

وجاء إلى المدينةِ مالٌ كثير ، فقام عُمر وقال للنّاس :

— أيُّها الناس ، قـــد جاءنا مالٌ كثير ، فإن شئتم كِلنا كيلا ، وإن شئتم أن نَعُدَّ عَدّا .

فأشار بعضُ المسلمينَ الذين جابوا بلادَ الفُرسِ والرّومِ عليه ، أن يُدوِّنَ الدّواوين ، أى يكتبَ قوائمَ بأسماءِ النّاسِ ، يوضحُ قرينَ كلِّ اسمٍ رزقه الشّهرى ، فقال :

— دَوِّنوا الدّواوين .

وأمر بإحصاءِ جميعِ القبائلِ العربية ، فأُحْصِيَت ووُضعتِ السِّجلاّتُ فى صناديق كبيرة ، وقـــد بدأ عمرُ بالأقربِ فالأقربِ للنبىّ ، ثم فَرَض لأهلِ بدر ، ومن بعدِهم لأهلِ الحُدَيْبِيَةَ وبَيْعةِ الرِّضوان ، ثم لمن بعـــــدَهم ، ولأهلِ القادسيَّة واليَرْموك .

وقال عُمر للناس :

— إنى كنتُ امرءًا تاجرًا يُغنى اللهُ عيالى بتجارتى ،

وقد شغلتُمونى بأمركم ، فماذا ترَوْن أنه يحلُّ لى من هذا المال ؟

فأكثرَ القـــوم ، وعلىُّ بنُ أبى طالبٍ ساكت ، فقال له عمر :

— ما تقولُ يا علىّ ؟

— ما أصلحَك وأصلحَ عيالَك بالمعروف ، ليس لك من هذا المالِ غيرُه .

— القولُ ما قالَ ابنُ أبى طالب .

فكان عمرُ لا يأخذ من هذا المال إلا ما يكفيه ويكفى عيالَه ، وحلَّة الشتاء وحلَّة الصيف ، فللّه درُّ عمر ، لقد أتعبَ الحكّامَ من بعدِه .